المركز وسلطة الهامش

Western centralization and marginal authority

إبراهيم بوخالفة[1*]

1 المركز الجامعي مرسلي عبد الله بتيبازة (الجزائر)، boukhalfa.brahim@gmail.com

Boukhalfa brahim

c.univ. tipaza (Algeria)

تاريخ الاستلام:2022/05/25 تاريخ القبول:2023/06/17 تاريخ النشر:2023/07/30

ملخص:

حقق الغرب سبقا علميا وحضاريا على حساب الحضارات غير الأوروبيّة، منذ عصور النّهضة الأولى وحقبة التنوير، بما في ذلك الحضارة العربية والإسلاميّة. وقد مكّنه ذلك السبق من احتلال بلدان كثيرة من آسيا وإفريقيا وأمريكا الجنوبيّة لقرونٍ عديدة. وقد وجد نفسه ملزما بالبحث عن مسوّغات أخلاقيّة لاحتلاله أراضٍ خارج حدوده، ودفعه ذلك إلى تقسيم كلّ شعوب العالم إلى أعراق بيضاء ونبيلة ومتطورة، وهي أوروبيّة بدرجة أولى، وأعراق متخلّفة وملوّنة وهي الشعوب غير الأوروبيّة. كما قسّم العالم إلى مركز (وهو الغرب) وهامش (وهو العالم غير الأوروبي). ويحقّ لنا أن نسأل هنا، ما هي تجليات المركزيّة الغربيّة في العلاقة مع المستعمرات القديمة؟ وهل يبدو الغرب مصرّا على استعلائه على الهامش، أم أنّه اقتنع بتغيير قواعد العلاقة الإنسانيّة بين الشعوب والأمم؟ وما هو موقف دول الهامش من الامبرياليّة التي يمارسها عليه الغرب بأشكال متعدّدة؟ هل توجد أشكال مقاومة ولو مبدئيّة تجاه التعالي الغربي، من قبل الشعوب المهمّشة؟

وفي هذا المقال نبحث في علاقات القوة والهيمنة التي تربط المركز بالهامش، والبعد العنصري لهذه العلاقات، وأشكال المقاومة التي بدأت تتبلور لدى الشعوب الأطرافيّة. كما أننا نحاول استشراف مستقبل العلاقة بين الشرق والغرب في ظلّ تعدد الأقطاب مع مطلع الألفيّة الثالثة.

الكلمات المفتاحية: المركز؛ الهامش؛ الامبرياليّة؛ المقاومة؛ الهيمنة.

* المؤلف المرسل.

Abstract:

The West achieved a scientific and civilized precedent at the expense of non-European civilizations, since the times of the first renaissance and the era of enlightenment, including Arab and Islamic civilization. This lead enabled him to occupy many countries in Asia, Africa and South America for many centuries. He found himself obligated to search for moral justifications for his occupation of lands outside his borders, and this prompted him to divide all the peoples of the world into white, noble and advanced races, which are primarily European, and backward and colored races, which are non-European peoples. He also divided the world into a center (which is the West) and a margin (which is the non-European world). We have the right to ask here, what are the manifestations of Western centralism in the relationship with the old colonies? Does the West seem insistent on its supremacy on the sidelines, or is it convinced of changing the rules of human relations between peoples and nations? And what is the position of the marginal countries towards the imperialism practiced by the West in various forms? Are there forms of resistance, even principled, to Western transcendence, on the part of marginalized peoples?

In this article, we discuss the relations of power and domination that link the center to the periphery, the racist dimension of these relations, and the forms of resistance that began to crystallize among the peripheral peoples. We are also trying to anticipate the future of the relationship between East and West in light of the multipolarity at the beginning of the third millennium..

Keywords: Center; margin; imperialism; Resistance; domination..

1- مقدمة:

يصنّفُ الأنثروبولوجيون الغربيّون البشر إلى صنفين أساسيّين على أساس لون البشرة، الرّجل الأبيض، ويُقصَدُ به الأوروبي، سليل العرق اليوناني والإغريقي. والرجل الملون، ويشمل الأسمر والأصفر والأسود. وهم عادة الأفارقة والعرب والآسيويون. وقد نصَب الأوروبيون بين ذينك الصّنفين من البشر حدودا صلبة غير قابلة للتفاوض. وقد تمّ توزيعُ القيم والسمات العقلية والنفسية بين تلك المجتمعات من كلا الصّنفين بشكل ينمّ عن تحيّزٍ متزمّتٍ (**dogmatique**) للرّجل الأبيض نظرا لما له من سمات خِلقيّة وخُلُقيّة تبوّئه منزلة الريادة (من وجهة نظرهم طبعا) في المسيرة الحضاريّة عبر التاريخ. ولقد تعزّزت عقيدة التفوق الحضاري لدى الغربيين بشكلٍ لافتٍ في حقبة التّنوير، بينما كانت الشّعوب الأوروبيّة في طريقها إلى احتلال العالم، وكانت الامبراطوريّة

الإسلاميّة في طريقها للتّلاشي، وفق السّنن الكونيّة للحضارات الذي ألمع إليه ابن خلدون. فالحضارة، أيّما حضارة، تمرّ بمرحلة طفولة ثم تبلغ عنفوانها في مرحلة شبابها، وبعد ذلك تتّجه نحو السقوط التّدريجي، إلى درجة التلاشي. وإذا كانت هذه السنن كونيّة ومطلقة، فإنّها تمرّ على كلّ الحضارات مهما كانت هويّتها. ويمكننا في هذه الحالة أن نتوقّع سقوط الحضارة الغربيّة ممثّلة في أوروبا وأمريكا، فذلك يبدو اليوم ممكنا أكثر من أيّ وقتٍ مضى .

وبالعودة إلى صلب الإشكاليّة، فإنّ الغرب قد طوّر ثقافة عنصريّة خلال حقبة التنوير، عبر إرساليّاته الأدبية والتاريخيّة والفلسفيّة، جوهرها أنّ الشّعوب غير الأوروبيّة غير قادرة على تمثيل نفسها، وعليها أن تقبل بمنزلة التابع للغرب صاحب الريادة في التطور العلمي والتكنولوجي. ومن هنا، تشكلت الفلسفة الإنسانويّة التي تدعو لإنشاء حضارة كونيّة بزعامة أوروبا، حيثُ ستسود الجميع علاقات إنسانيّة خالية من الكراهيّة والتّمييز العنصري، ولا مكان فيها للحروب الدّينيّة أو الاقتصاديّة. وتعتقدُ أوروبا أنّها الأكثر قدرة على قيادة البشريّة نحو نظام دولي عادل. غير أنّها راحتْ تبشّرُ برؤية كونيّة امبرياليّة وتفرضها على آخريها بالقوة من خلال التّهديد بالغزو أو بالمحاكمات أو بالإبادة، إذا ما تعرّض وجودها للتّهديد من قبل التابعين .

ورغم التطور الثقافي والعلمي الذي أزال الغشاوة من على العيون في كلّ بقاع الأرض، ورغم تهاوي أساطير التفوق الغربي على المستوى العالمي، ورغم انبثاق معارضة محمومة لمشروع التنوير الأوروبي من قبل بعض فلاسفة الغرب من الدّاخل، ورغم الصّحوة الحضارية التي أدركها العالمثالثيون، رغم كلّ ذلك فإنّ عقيدة المركزيّة الغربيّة لم تزدد إلى تمكّنا، ولم تزدد الامبرياليّة الغربيّة إلاّ هيمنة في البر والبحر وفي الجو. لقد أنتج النظام العالمي الذي فرضه المنتصرون في الحرب العالميّة الثانية كونا وكونا مضادّا له. المركز الحواضري بكلّ ثقله الاقتصادي والعسكري والثقافي، وهامشا لا يزال يستجدي أسباب وجوده على موائد الغرب الذي يستعبده ويسرق ثرواته في رابعة النهار. نروم دراسة العلاقة المعقدة بين المركز والهامش، وآليّات اشتغالها وتمظرها على مستوى الخطاب الروائي.

المركزيّة الغربيّة:

المفهوم والنّشأة:

المركزيّة الغربيّة هي عقيدة أوروبيّة قديمة، يعتقد الأوروبيّون بمقتضاها أنّهم أكثر الشّعوب تطورا، وذكاء وفضائل، وبذلك استحقّوا أن يتبوّؤوا مركز العالم، واستحقوا أن يقودوا البشريّة جمعاء وفق رؤيتهم للعالم، وضمن النظام الدّولي الذي يرتضونه هم، دون مشاركة القارّات الأخرى. تلك القارات يجب أن تقبل بوضعيّة التابع، وهو الأفضلُ لها إذا أرادت أن تتطوّر، وتتقبّل الأنوار الغربيّة. والواقع أنّ فكرة السّمو الأوروبي، وفكرة نبل العرق الآري وأفضليّته على كلّ الأعراق البشريّة، وفكرة مركزية أوروبا وعالميّتها "ستفرضُ نفسها في القرن الثامن عشر بحيثُ تصبحُ أوروبا حسبّ دوفيز" الوسيط للتقدم الكوني والسيد المعطاء الذي ينبغي على العالم أن يكون معتمدا عليه سياسيا وتكنولوجيا" (عبد الله إبراهيم، 1997، ص18). كانت أوروبا تسعى إلى جمع العالم كلّه تحت جناحيها، وتحتلّ هي مركز العالم والزعيم الروحي لمجتمع إنساني تحت قيادة أوروبيّة. ومن أجل هذه الإرساليّة

نشرت أوروبا أساطيلها وجنودها ومبشريها وخبراءها في كلّ بقاع العالم تحت مسمّى رسالة التّحضير والتّحديث، وتنقية الحضارة الإنسانيّة من كلّ أشكال الاستبداد الشّرقي .

لقد تشكّلت مقولة المركزية الأوروبيّة "عبر تاريخ طويل، من خلال تلفيق الوقائع التاريخيّة وتزوير الحقائق وأسطرة الظواهر من أجل أن تلائم وجهة النظر الغربية المهووسة بنظرية الصفاء العرقي" (إبراهيم بوخالفة، 2021، ص7) وهي مقولة قائمة على استمرارية تاريخية تمتد من اليونان القديم وإلى غاية القرون الوسطى مرورا بروما القديمة، ووصولا إلى حقبة التنوير. استمد مصطلح التمركز حول الذّات معناه من الدلالة المباشرة لاصطلاح **égocentricité** التي تقتضي طغيان وجهة النظر الذاتية والمباشرة. وهي فكرة وليدة مرحلةِ الطفولة. إذْ أنّ نسبة الأنانيّة لدى الطّفل تكون عالية، فهو لا يشعر إلاّ بوجوده الجسدي، ولا يحتفي إلاّ بما يوافق هواه، ويرى نفسه مركز العالم، ويطالب بأن يكون محيطه الأسري الحميم متعلّقا به، وبه فقط. إنّ التّمركز حول الذّات، وفي الجوهر منه، يعود إلى انغلاق المحيط الخاص للذّات، وعن إعراضٍ عن مقولات الآخر ورؤيته للعالم. وإنّ أوروبا لم تتعرف على العرب ولا الأفارقة إلاّ من أجل استعمارهم واستعبادهم، وبسبب ذلك لم تكن معنيّة بمعرفتهم معرفة موضوعيّة من أجل إقامة حالة تعاون ومثاقفة معهم. فهي لا ترى فيهم ندّا حضاريّا يمكن التحاور معهم، أوتبادل المنافع معهم. بل إنّها ترى أنهم عرقٌ متخلّفٌ وغير قابل للتطور، ولا يستطيع أن يحكم نفسه، وعليه أن يبقى تابعا. إنه عرقٌ خُلِقَ ليكون محكوما، وذلك هو قدره. "فالصّورة الضديّة للشّرق العبودي الجاهل، والممتنع عن تلقّي الأنوار هي من الآن فصاعدا صورة مثبتة ومتحجّرة، على غرار آسيا نفسها"(تيري هينتش، 2006، ص . 208) لقد تضافرت جهود المستشرقين والرحالة الغربيين والانثروبولوجيين والفيلولوجيين، طيلة حقبة الأنوار من أجل إثبات دونية الشعوب غير الأوروبيّة وتخلفها الجبلي، واستعدادها الفطري لتكون محكومة من قبل الغرب. فهي عاجزة عن تمثيل نفسها، ولا تملك تراثا علميا يؤهّلها لتحقيق نهضتها، رغم ماضيها المجيد. لقد أنتج العرب في طفولتهم الأولى حضارة علمية مجيدة، ولكن نموهم توقف في مرحلة الطفولة، وقد عجزوا عن تجاوز ذلك الماضي، لأسباب جينيّة. إنهم من تركيبة بشريّة متخلفة وناقصة. ومن أجل ذلك يُتصوّرُ العرب "راكبي جمال وإرهابيين، معقوفي الأنوف، شرهين، تمثّلُ ثروتهم غير المستحقّة إهانة للحضارة الحقيقيّة"(إدوارد سعيد، 1981، ص 131). وهذه الصّورة تعود بالذّاكرة إلى القرون الوسطى ومع ذلك فلا يزال أرشيف الاستشراق يردّدها في أدبياته سيئة السّمعة. لا يزال العربي يُمثّل وهو يعيش في الصحراء مع الجمال وقطيع الأغنام والنّخيل، ولا تزال حياته مثبّتة في بدائيّتها وبساطتها، وإذا ما حاولنا نقله إلى الحداثة الغربيّة فإنه سيتحوّل إلى إرهابي، ودموي، وهو مستعدٌّ دوما لتسميم حياة الغربيين. من أجل ذلك سعتْ أوروبا إلى تشذيب شذوذيّته، وترويض همجيّته، وتحضيره، ومن أجل تحقيق هذه الغاية الإنسانيّة، فلا بدّ من احتلال بلاد العرب، وتدمير بنيتهم الثقافيّة القروسطيّة، ونمط إنتاجهم المتخلّف .

لقد كان كارل ماركس –المتعاطف مع الشرط الإنساني–مناصرا للاستعمار، مدافعا عنه. يقول في هذا السياق مبررا استعمار إنجلترا للهند: "أنّ هذه التجمّعات القرويّة الشاعريّة مهما بدتْ مسالمة وهادئة كانت على الدّوام القاعدة الصّلبة للاستبداد الشرقي. لقد كانت قيدا على عقل الإنسان، حبسه في أضيق دائرة ممكنة

جاعلا إياه أداة الخرافة التي لا تعرفُ معنى المقاومة، مستبعدة إياه في ظلّ القوانين التقليدية، حارمة إياه من كلّ أشكال الجلال والطّاقات التاريخيّة"(هاردت مايكل ونيغري أونطونيو، 2002، ص186) وكأنّ انجلترا احتلّت الهند من أجل تخليصها من استبدادها، ومن ثقافاتها الخرافيّة ومن أساطيرها المهينة للعقل. وكأنّ فرنسا احتلّت الجزائر من أجل الارتقاء بها إلى مراتب الدول المتطورة، وأن أمريكا احتلّت العراق من أجل تخليص الشرق الأوسط من الدكتاتورية والعنف، واضطهاد المرأة. صحيحٌ أن الجزائر كانت متخلفة مقارنة بأوروبا، وصحيحٌ أيضا أنّها أضحت أشدّ تخلفا بعد الاحتلال، وأشدّ بؤسا، وصحيحٌ تماما أنّ استبداد الاستعمار مهما كان جنسه لا يقاس بضيق الحريّات في ظلّ الأنظمة الوطنيّة في إفريقيا وآسيا .

لم يكن ماركس صوتا ناشزا في أوروبا أثناء مباركته للاستعمار، بل كان كبار علماء فرنسا يدعون لاستعمار العرب والمسلمين. يرى رينان "أنّ الشّرط الضّامن لانتشار الحضارة الأوروبيّة في تدمير الشيء السّامي تدميرا كاملا، وفي تهديم السلطة الثيوقراطيّة التي تقوم عليها العقيدة الإسلاميّة؛ وذلك أنّ هذه الدّيانة لا تستطيعُ إلى الوجود سبيلا إلاّ كديانة رسميّة" (جورج قرم، 2011، ص53) وفي هذه الحالة فإنّ أوروبا لا يمكنها أن تتعامل مع حكومة دينيّة، ترى فيها آخرا يسعى إلى إفنائها. لم تكن الدّعوة إلى تدمير الحضارة الإسلاميّة خفيّة، بل كانت دعوة علنيّة، ومع ذلك فلم تكن المقاومة لمسعى الاستعمار مقنعة، بل تمكن الغرب من احتلال ما يتوق إلى احتلاله بخسائر لا تُذكرُ. وهكذا نشأ مركزٌ حواضري يُدار منه شأن الهامش.

إنّ دوافع الاستعمار اقتصاديّة بالدّرجة الأولى. فالغرب يسعى للهيمنة على مصادر الثروة وتحويلها إلى المركز خدمة لاقتصاديّاته ولرفاهية الأوروبيين بالأساس. غير أنه يداري هذه الحقيقة بشعارات إنسانويّة لم تعد مقنعة. وهو اليوم يسعى للهيمنة على الأنظمة في دول العالم الثالث، من أجل سرقة ثرواتها، وقد عمد إلى عولمة قيمه العليا، ولغاته، وآدابه، ويستمرّ في ممارسة امبرياليّة ثقافيّة على العرب والمسلمين والأفارقة. إنّ نظرة الغرب الدّونيّة إلى شعوب الهامش تزداد سوءا مع تعاقب العصور. فالكولونياليّة لن تتخلّى عن أهدافها، ولكنّها من حينٍ لآخر تُحيّن أدوات الهيمنة والسّيطرة، كالعقوبات الاقتصاديّة والحصار التّكنولوجي، وسحب الاعتراف السياسي، والتّهديد بالانقلاب على النّظام المارق، وقد يصلُ الأمر إلى إعلان الحرب، كما حصل للعراق مع أواخر القرن العشرين، عندما أراد أن يخرجَ عن بيت الطّاعة الغربيّة وكما يحصل اليوم مع تركيا التي تمرّدت على أمريكا بسياستها المستقلّة، وهي تسعى اليوم إلى الانسحاب من الناتو، لإنشاء تحالف إسلامي قويّ يحرّر الشرق الإسلامي من الهيمنة الغربيّة.

بات الصّراع اليوم بين الشرق والغرب محموما، وبأشكال متعدّدة، ليس أقلّها معامل الثقافة، والهجرة، والحصار التكنولوجي، والمحاكمات الدّوليّة. ولا تزال أسباب الصّراع على حالها. فللعقل الغربي أساطيره المهيمنة. إنه لا يزال يضعُ نفسه في طليعة التاريخ، وصانع الحضارة العلميّة، وليس للعرب أيّ دورٍ إيجابي فيها. إنهم مستهلكون لمنتجات التّكنولوجيا الغربيّة، ولم يذهبوا أبعد من ذلك. وهم لا يتقبّلون الدّيمقراطيّة وأنظمتهم مستبدّة، ويضطهدون المرأة. غير أنّ الحقيقة هي خلاف ذلك. إنّ أمريكا وأوروبا تلحّان على ضرورة تطبيق الدّيمقراطيّة، وفي الآن نفسه يُطوّران آليات استبعاد تمنع الآخر من التحول إلى المثل. ما من دولة عربيّة تمارس

الحياة السياسيّة بشكل ديمقراطي، إلاّ وتتعرّض لانقلاب عسكري بإيعازٍ من الغرب. والأمثلة على هذه الظّاهرة ليست على عدّ الأصابع .

قديما، وفي ظلّ الاستعمار الكلاسيكي، كان المحتلّ يمتهنُ كرامة صاحب الأرض، ويستعبده، ويبتزّ أمواله إذا كان فلاحا، كلّ ذلك من أجل أن يبقى على قيد الحياة ولا يُطرد خارج البلاد. أمّا اليوم، فقد تغيّر الوضع. أصبح الغرب يجلبُ العرب والأفارقة والآسيويين إلى المركز من أجل امتصاص جهدهم واستعبادهم. وهو يتعامل مع النّخبة المثقّفة العالمثالثيّة بنفس العقليّة الكولونياليّة. إنّه يحوّلُ هؤلاء في الكثيرِ من الحالات إلى مخبرين، أو وكلاء، وفي كلّ الحالات، فهم رسلُ الغرب في بلدانهم، والمبشرون بقيم الحداثة الأوروبيّة. إنهم يعودون إلى بلدانهم وقد تحوّلوا إلى غربيين بأسماء عربيّة. لقد اندمجوا مع نمط حياة البلد المستقبل، وتماهوا مع أساليب عيشه وعاداته ومقدّساته، وأصبح غريبا في بلده. وقليلٌ هم الذين رفضوا الاندماج الثقافي مع الغرب، رغم أنهم يقيمون فيه، ويمارسون وظائف دائمة. يحافظون على ثقافة الأسلاف، وعاداتهم الاجتماعيّة التي تميّزهم عن آخريهم. ومع الحرص على هذا الاختلاف والتنوّع، فإنهم لا يُشكّلون أيّ خطرٍ على الغير. بل يساهمون في إغناء هذا الآخر ووسمه بالتسامح وقبول مبدأ الاختلاف الذي يغني المجتمعات ويخصبُ تفكيرها الأخلاقي.

غير أنّ مثل هذه الحالات ليست من الكثرة بحيثُ تؤثّر على السياسات الثقافيّة بين الهامش والمركز. ومع ذلك، فإنها الحجّة على أنّ العيش المشترك بين الشعوب الغريبة عن بعضها هو ظاهرة إنسانيّة. قديما تحدّث الروائي البريطاني الكولونيالي أنّ الشرق شرقٌ والغربَ غربٌ ولن يلتقيا أبدا. وهاهما يلتقيان على صعيدٍ واحدٍ، صعيد الإنسانيّة الرحب. لقد كان كيبلينغ ناطقا بلسان الحكومة البريطانيّة، ولم يكن يعبّر عن موقفٍ فرديّ أو شعبي. إنّ الروائي أو الشاعر في القرنين التاسع عشر والعشرين، يكتبُ نصوصه خدمة لحكومة مستعمرة. وكونه بريطانيا أو فرنسيا أو إسبانيا، ليست حقيقة خاملة. فلطالما كانت الرواية، ولا تزال إلى اليوم منخرطة في الشّرط الامبريالي، ولا يمكن الحديث عن إحداهما بمعزلٍ عن الأخرى. وإنّ الانتشار الرّهيب للرواية في حقبة التّنوير لا يجد مسوّغة إلاّ في الانتشار الرهيب لجيوش أوروبا ومبشريها وخبرائها وعلمائها ومواطنيها عموما.

ثنائيّة المركز والهامش:

إشكاليّة العلاقة بين المركز والأطراف:

المقصود بالهامش، هو المكان المبعد نحو الأطراف لقلّة الحاجة إليه ولضعفه، وازدراء الناس له. وفي الدّلالة اللّغوية للكلمة، الهامشي هو "كل ما يرتبط بحافة أو حدّ أو تخم أو طرف"(طوني نينيت وآخرون، 2010، ص697) غير أنّ مدلول المفردة سرعان ما تطوّر من الدّلالة على الحالة المفردة والمعنى المباشر (الهامشي) إلى الدّلالة على جماعة أقلّوية تعيش على التّخوم. "في بواكير القرن العشرين صارت كلمة الهامشي تستخدم لتدلّ على فردٍ أو جماعة اجتماعيّة معزولة أو لا تتلاءم مع المجتمع أو الثقافة المهيمنة، ويُنظرُ إليها باعتبارها توجدُ على حافّة المجتمع أو الوحدة الاجتماعيّة وتنتمي إلى جماعة أقليّة غالبا ما تنطوي على مضامين الاستغناء وعدم الانتفاع"(طوني نينيت وآخرون، 2010، ص697). يتحدّثُ غرامشي عن الطبقات المهمّشة من المزارعين والعاملين التي تُحرَمُ من الوصول إلى السلطة المهيمنة، وتُحرمُ من تمثيل نفسها. بينما يتمّ إدراك الطّبقة الحاكمة

باعتبارها جماعة مهيمنة في المجتمعات الطّبقيّة، حيثُ يكابد المسحوقون من الاستبداد السياسي. ومن هذا المنطلق، فإنّ التاريخ "هو تاريخ الدّول والجماعات المهيمنة"(بيل أشكروفت، 2010، ص. 319) من هذا المنظور يتمّ إدراك ثنائية المركز والهامش في سياق المجتمع الواحد.

غير أنّنا، في هذا السّياق، نستعمل المصطلح على الصّعيد الدّولي، فالهامش هو الشعوب غير الأوروبيّة بما فيها العرب والأفارقة والمسلمون، والآسيويّون، والمركز تمثّله الشعوب الأوروبيّة. "صارت أوروبا الامبرياليّة تُعرفُ بوصفها المركز داخل جغرافية كانت على الأقلّ رمزيّة بقدر ما كانت حسية. فكل شيء وقع خارج ذلك المركز كان بالبداهة يقف عند هامش أو حافة الثقافة والسلطان والحضارة"(بيل أشكروفت، 2010، ص93). بسبب ذلك لا تعتدّ أوروبا بمنجزات الهامش، ولا تلقي لها بالا، ولا تسمحُ لتلك الدول المصنّفة هامشيّة بأداء دورها في النظام العالمي. فعلى سبيل المثال تُحرمُ دول الهامش من عرب وأفارقة ومسلمين من تمثيل شعوبهم في مجلس الأمن بسبب حرمانهم من حقّ الفيتو. وهكذا، فإنّ القرارات التي تُمرَّرُ لا تبالي بدول الهامش. والمفارقة العجيبة في هذه الثنائيّة هو محدوديّة أوروبا الجغرافيّة التي لا تتناسبُ مع ثقلها الامبريالي. يوجد اليوم تناسبٌ بليغ بين لامحدوديّة القارة الأمريكية وشساعتها القاريّة وبين ثقلها الامبريالي. فهي المركز اقتصاديّا وعسكريا وثقافيّا بعد أنْ أزاحتْ أوروبا عن مكانتها الدّوليّة.

إذا تحدّثنا على الصّعيد المحلي فإن مفهوم الهامش والمركز يتغيّران. يصبح المهمش في المجتمع الطّبقي هي الفئات المسحوقة، والمركز هي الفئة الممسكة بأدوات الإنتاج والمتحكمة في الثروات. فأنْ تكون مهمّشا أو هامشيا، يعني أنك مجرّد من كلّ سلطة، وأنّك مُبْعدٌ عن مراكز القوة. أما كونك في المركز، فهذا يعني أنك تمتلك السلطة التي تمكّنك من الهيمنة على من هم في الهامش.

في الدّلالة اللّغويّة، المركز هو قلب المكان ووسطه، ومحوره. وهو منطقة الجذب والاستقطاب، ومصدر القوة والتنوير والحيويّة والسلطة. ومصطلح المركز والهامش من أكثر المصطلحات شيوعا في النقد ما بعد الكولونياليّة. فلم يكن للاستعمار أن يوجد إلاّ من خلال "افتراض وجود مقابلة ثنائيّة ينقسمُ إليها العالم"(سمير خليل، س غير مذكورة، ص279) إلى قويّ وضعيف. فقد اعتمد تأسيس الامبراطوريّة الغربيّة على العلاقة النّمطيّة الثابتة بين المستعمَر بوصفه آخر وبين الأسياد الجدد المهيمنين. إنّ المركز والهامش صناعة غربيّة بحتة.

لقد دُرِس الشرق في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر من قبل مؤسّسة الاستشراق الغربي. وأفضت الدّراسة إلى وجود شرقٍ لا علاقة له بالشرق الحقيقي. لقد كان الشرق المتخيّل صنعة غربيّة. ولم يكن هامّا أن تشبهَ الصّورة الأصلَ. إنّنا نقرأ شرقا منزوع المهابة، ومجرّدا من كلّ نقاط القوة التي كان يتمتّع بها، وغير قادرٍ على التّهديد. لقد أنتج الغربُ شرقا خاملا، ساكنا، وفي مقابل ذلك نجد أنفسنا أمام غربٍ مدجّجٍ بعناصر القوّة المتنوّعة، موفور العافية. غير أنّ فرانس فانون له رأيٌ آخر يخالفُ فيه إدوارد سعيد. "إنّ أوروبا هي التي كانت حرفيّا من خلق العالم الثّالث؛ بمعنى أنّ الثّروة الماديّة والعمل في المستعمرات (العرق والأجساد الميّتة للزّنوج والعرب والهنود والشّعوب الصّفراء) هي التي حقّقتْ ثروة أوروبا"(آنيا لومبا، 2007، ص 57) التي خرجتْ من الحربين العالميّتين مدمّرة وممزّقة، ومفلسة.

كانت أوروبا هي المركز المهيمن، بعد أن تعافى اقتصادها وبنيتها التّحتيّة. وقد بلغت نضجها الفكري والاقتصادي والعسكري، بما يسمح لها ببسط نفوذها على الشرق الذي هيّأته ليكون خلفيتها التي تمارسُ فيها جنونها، وشهوتها للحكم والسّيطرة. لقد كانت أوروبا مهووسة بممارسة العنف، وإقصاء كلّ من يقف في طريقها نحو الكونيّة. إنّها لم تُشْبِعْ غرائزها التّدميريّة في أمريكا في القرن السّادس عشر، وهي تستأنسُ في نفسها القدرة على فعل ذلك في إفريقيا وجزء غير يسيرٍ من آسيا. في القرن التاسع عشر، وبعد الثورة الصناعة والعلميّة الي شهدتها أوروبا، كان واضحا أنّ العالم في طريقه ليكون تحت قدميها. وبالقدر نفسه كان واضحا أنّ الهامش ازداد انكماشا وأنّ هيبته في طريقها إلى الزّوال، ليصبح الهامش مثيرا للشفقة، وغير قادرٍ على تمثيل نفسه، أو حكم شعوبه. وعلى ذلك الأساس انبنت علاقات القوّة بين الدّاخل والخارج، ولا تزال على حالها، إلى يومنا هذا، إنْ لم تزدد سوءا.

عادتْ أوروبا لِتَداولِ مصطلحات مثل الهمجي والبربري والبدائي والمتوحّش، وكلّ تلك المسمّيات أسقطتها على الهامش. تبادر الكولونياليّة. "إلى بناء رموز آخريّة وتؤمّنُ تدفّقها فيما يتكشّف كبنية ديالكتيكيّة معقّدة. فعمليّة البناء السلبيّة لآخرين لا أوروبيين هي التي تقوم في آخر المطاف بتأسيس الهويّة الأوروبيّة نفسها وإدامتها"(. هاردت مايكل ونيغري أونطونيو،2002، ص193) يسمحُ التّمثيل الصورولوجي للآخر بقلب الصّورة رأسا على عقب من أجل معرفة الذّات. تعمل الهويّة الكولونياليّة من خلال منطق مانوي قائم على سياسة الإقصاء والإبعاد، إنه عالم ممزّقٌ إلى شطرين. يجري إقصاء الآخرين ليس فقط إقصاء ماديا، إقليميّا، ولكن أيضا على صعيد الثقافة والقيم. إنّ للغرب قيما لا يصلح الآخر لتمثيلها ولا لتمثّلها. الثقافة الغربيّة ونمط العيش الغربي، وعادات وتقاليد المركز، كلّ ذلك يقصى منه العرب والأفارقة والآسيويّون بحكم تخلفهم الوراثي ولكونهم "وحدانيون متعجّلون، لم ينتجوا تراثا أسطوريّا أو فنّا أو تجارة أو حضارة، ووعيهم ضيّقٌ وحادّ الصّلابة، وبشكل عام هم يُشكّلون تركيبا دونيّا للطّبيعة الإنسانيّة"(إدوارد سعيد، 1981، ص131). ولا تزال نظرة الغرب إلى الشرقيين موسومة بالدّونيّة إلى اليوم، كما أنّنا، نحن العرب، لم نبدِ ما يقوّضُ موقفهم منّا. فالفارق الزمني بين الشرق والغرب، بين المركز والهامش لا يزال موهنا للعزائم. إنّ نهضة التابع لا تزال عصيّة عن الإدراك. وإنّ شروطها الموضوعيّة لم تتجمّع بعد لتنتج ثورة على مستوى الذّات تغيّر موازين القوى بين الشرق والغرب، وتعيد العلاقات الإنسانيّة إلى مسارها الصّحيح.

وهكذا، وبعدما كان الغرب يتحجّجُ بالرسالة التّحضيريّة التي دفعته لمرافقة المناطق الهامشيّة، ها هو يزعمُ بأنّ الهامشيين غير قادرين على تمثّلِ الثقافة الغربيّة، لأنهم ليسوا في مستواها، ليتمّ سحب الاعتراف بهم بوصفهم بشرا كاملي الحقوق والكرامة الإنسانيّة. إنّ نظرة الغرب لشعوب العالم الثالث (أو ما سُمي كذلك) تكشف عن طبيعته العنصريّة .

إنّ مدار اهتمام أوروبا الامبرياليّة في حقبة التّنوير هو ممارسة كلّ سلطتها من أجل جلب الهامش إلى مجال تأثير المركز المستنير والمتسيّد على الطّبيعة وعلى الكون. وهو السبيل نحو الاستغلال الاقتصادي والسياسي التي تميّزت به الكولونياليّة الغربيّة.

راهن الصراع بين المركز والهامش:

إرهاصات المقاومة:

لقد قلنا سابقا أنّ الاستعمار لا يتخلّى عن أهدافه ولكنّه يغيّر أساليب تحقيقها. إنه صاحب نَفَسٍ طويل، ولا يملّ الحروب. وعندما انسحب من مستعمراته القديمة في النّصف الثاني من القرن العشرين، لم يكن ذلك من باب التخلي عن السيطرة والاستغلال الاقتصادي. كان عليه فقط أن يغيّر من أساليب الهيمنة وتسيير المستعمرة من خلال وكلاء مخلصين يحافظون على الوديعة التي هم أمناء عليها. "لقد حصل تغيّر نوعي إبان السيطرة الامبرياليّة على عوالم الشّرق بعد أن أقرّت السّلطات الإداريّة الغربيّة ضرورة الإشراف عن بعد، وعبر وكلاء محليين للسيطرة والتحكّم في مقدّرات البلدان القصيّة انسجاما مع دعوة علومهم أو معارفهم لانعتاق الإنسان وتحرّره"(نديم نجدي، 2012، ص200). وهكذا أُنشِئت هيئات دولية ومنظمات عالميّة سياسيّة واقتصاديّة، الهدف الظّاهري منها هو تنظيم العلاقات الدّوليّة وتحرير التجارة البينيّة وتنمية الحريات الدّيمقراطيّة وترقية حقوق الإنسان. إنها شعارات جذّابة. ولكنّها في الحقيقة شراك للقبض على الحكومات في المستعمرات القديمة وإجبارها على التعاون مع الدول العظمى لحفظ مصالحها، ومنع سرديّات المقاومة من أن تنشأ، وقمع كلّ محاولات الاستقلال عن النظام العالمي الذي أنشأته الدّول المنتصرة في الحربين الأخيرتين. وفي مقابل ذلك يضمن الغرب بقاء الأنظمة الموالية في الحكم، ويُمدّها بالشرعيّة الدّوليّة، وبأدوات القمع التي تحتاجها لأداء المهمّة بأقلّ الخسائر .

إنّ متغيّرات كثيرة حصلت مع مطلع الألفيّة الثالثة، غيّر الغرب بموجبها من استراتيجيّات الهيمنة على القارات المهمّشة، ومن بينها إفريقيا بشكل خاص. وفي الوقت الذي سقط فيه حلف وارسو والمنظومة الشيوعيّة تحديدا، ظهرت مراكز قوّة أخرى غير تقليديّة، تتزاحم بالمناكب على المصالح. وقد ساعدت هذه الحقيقة على انتشار الثقافات الهامشيّة بشكلٍ غير مسبوقٍ، وغدت ثقافتنا اليوم هجينة أكثر من أيّ وقتٍ مضى. لا توجد اليوم "ثقافة منفردة ونقيّة محض، بل كلّها مهجّنة، مولّدة، متخالطة متمايزة إلى درجة فائقة"(إدوارد سعيد، 2004، ص70). وكان الانتشار الكوني للامبراطوريّة الغربيّة اليوم هو من يقف وراء هجنة الثقافات، للقضاء على الكيانات الثقافيّة الأقلّوية، والتّقليل من جدوى الاحتفاء بالهويات الأصوليّة. إنّ عالم اليوم مدعوٌّ للاحتفاء بالحضارة المنتصرة والسّير على خطاها والأخذ بنموذجها في التنمية. غير أنّ الغرب يرفض للعرب والأفارقة أن يتحوّلوا إلى غربيين مهجّنين. إنهم يثبّتونهم في غيريّة دائمة، ويصرّون على إبقائهم في وضعيّة التابع. والحقيقة أنّ الغرب لا يزال يزدري العرب والمسلمين، ويتوجّس منهم خيفة. لقدّ ظلّت الثقافة الغربيّة بكلّ تجلياتها الشعبيّة والرسميّة تطوّرُ منذ عقودٍ طويلة أنماطا جديدة من الآخريّة، تعبّرُ عن كراهيّتها المتأصّلة تجاه الإسلام"(إبراهيم بوخالفة، 2021، ص77). خلال القرن التاسع عشر كانت صورة الرجل المريض تتردّد كثيرا في المركز، هذا الرجل الذي سيؤخذ إلى غرفة العمليات الجراحيّة من أجل اجتثاث شذوذيّته. وفي سبعينيات القرن الماضي راجت صور الملالي وشيوخ النفط المنبوذين. وفي العشريّة الأخيرة من القرن كنّا نسمع الكثير عن القاعدة وتهديداتها الأمنيّة، ونحن اليوم نعيش كابوس داعش .

لقد برع المركز في ثقافة الكليشيهات، وغدا مصنعا للتمثيلات الرهابية التي غزت مؤسّساته الإعلاميّة وأدبياته اليوميّة، إلى درجة أصبح بعضنا يتلقاها بوصفها مسلّمات، على الجميع مواجهتها.

إنّ الدّعوة إلى العولمة في مجال الثقافة والاقتصاد والقيم الغربيّة ذات النزوع الكوني، إنّ كلّ ذلك من شأنه أن ينتهي بالثقافات الأقلّويّة إلى الاختفاء. ونحن نرى اليوم رأي العين أنّ قيم الغرب تعلو ولا يُعلى عليها، في كلّ من المركز والهامش. خذ على سبيل المثال مصطلح الدّيمقراطيّة، أو مقولة حرية المرأة، أو العلمانيّة، إنّها مقولات غربيّة في جوهرها، وقد تولّدت من رحم الحضارة الغربيّة خلال عقودٍ من الزّمن، وإنّ ترحيل تلك القيم من بيئتها الطّبيعيّة إلى بيئة أجنبيّة لا يستقيمُ، إضافة إلى إمكانيّة طمس تلك القيم الأجنبيّة لمعالم الثقافة الأصلانيّة. واللافت في كل ذلك أنّ المثقفين العرب على دراية بكلّ هذه المحاذير، غير أنهم يتعامون عليها بدعوى المنظور الكوسموبوليتي. وإذا كانت الكونيّة أو العالميّة لا تعني أكثر من كونها أوروبيّة، فإنّنا نسقط في التبعيّة للمركز، دون أن نشعر. تعني العالميّة، أن تكون القيم نتيجة لتفاعلات جدليّة بين كلّ الثقافات والحضارات وفي كلّ العصور والحقب. وما يحصل اليوم بين المركز والهامش بدعوى المثاقفة، غير سليم، لأنّ المثاقفة لا تكون إلاّ بالمشاركة والتأثّر والتأثير المتبادلين. ما نراه اليوم هو مثاقفة بالإكراه. إنّ الغرب يمارسُ امبرياليّة ثقافيّة على الهامش، دون أن يجد مقاومة نديّة. إنها معركة غير متكافئة على الإطلاق .

يعتبرُ مؤرخو ومفكّرو الغرب، في حقبة التّنوير أنّ أوروبا هي مركز العالم، وأنّ باريس هي عاصمة الآداب العالميّة، وما عداها من آداب فهي تجارب هامشيّة وثقافات أقلّويّة، لا يمكنها أن تحوز العالميّة إلاّ بقدر تماهيها مع النموذج الأوروبي في النهضة الفكريّة والأدبيّة. وبدءا من النصف الثاني من القرن العشرين، أزيحتْ أوروبا عن واجهة العالميّة لتأخذ أمريكا مكانها. ولم تكن أوروبا المدمّرة بفعل الحروب قادرة على أن تجاري القفزة التاريخيّة للحضارة الأمريكيّة .

يعيشُ العالم بدءا من حرب (عاصفة الصحراء) هيمنة أمريكيّة لا مثيل لها في العلاقات الدوليّة. فإذا كنّا نتحدّث منذ التنوير الأوروبي وإلى غاية النصف الأوّل من القرن العشرين، عن مركزيّة أوروبيّة، تسعى أوروبا بمقتضاها إلى أوربة الكرة الأرضيّة، فإننا اليوم نشهد مركزيّة أمريكيّة تتستّرُ وراء دعوى العولمة. تسعى أمريكا إلى بسط نفوذها على كلّ القارات دون استثناء باعتبارها القوة العظمى التي لا يطالها أيّ تهديدٍ. في حدود النصف الأول من القرن العشرين كانت أوروبا تسيطر على 100/85 من مساحة اليابسة. وبعد الحرب العالميّة الثانية فقدت الكثير من نفوذها بحكم طغيان الهيمنة الأمريكيّة. واللافت في كلّ ذلك أن العرب والأفارقة لم يتمكنوا من تحقيق انعتاقهم من الامبرياليّة العالميّة، سواء في شكلها الأول أم في شكلها الأمريكي. بقي الهامش مهمّشا، خاضعا، غير قادر على حكم نفسه، أو الدّفاع عن قراره السياسي، ولا هو قادر على التحكم في ثرواته الاقتصاديّة.

ومع ذلك فقد ظهر مثقفون من داخل الثقافة الغربيّة يعملون على تفكيك ثنائيّة المركز/الهامش، من خلال تقويض كلّ المركزيّات المشكّلة على أساس عرقي أو إيديولوجي أو اقتصادي. ومن أهمّ هؤلاء يخطر بالبال المفكر الأمريكي الفلسطيني إدوارد سعيد الذي كان من أوائل مؤسسي النقد ما بعد الكولونيالي من خلال "الاستشراق" و"الثقافة والامبرياليّة". لقد كان مناهضا للدعاية الأمريكيّة والإسرائيليّة طيلة حياته الفكريّة، وظلّ معارضا شرسا

للامبرياليّة الغربيّة التي تمتهن كرامة الإنسان في الوقت الذي تدعو فيه إلى حقوق الإنسان والحريات الفرديّة. وفي مؤلّفاته الفكريّة، كان ينتقد النزعة الاستعمارية للسياسة الأمريكيّة المبنيّة على أساس علاقات القوّة.

يُذْكرُ في هذا السياق أيضا المفكر الأمريكي الهندي هومي بابا، صاحب كتاب "السرد والأمّة" و"مواقع الثقافة". وفي الجزائر يُذْكَرُ الكاتب المارتينيكي فرانس فانون الذي رافق ثورة التّحرير الكبرى وساندها فكريّا وعاطفيّا. وكانت كتاباته ردّا بالكتابة على سطوة المركز. وفي مقابل ذلك يجادلُ الأوروبيون المتمركزون على الذّات من أجل تأكيد أفضليّة الرّجلُ الأبيض على الملونين على جميع الأصعدة. وفي المحفل الثقافي يُبدي هؤلاء الكتّاب صنوفا شتّى من البلاغة من أجل تمرير رؤيتهم للعالم وفرضها على مستوى عالمي. لقد كان معظم فلاسفة الغرب المحدثون متمركزين على الذّات، من هيجل إلى ماركس، إلى دوساسي وتلميذه رينان، وغوبينو. كما كان أدباء عصر التنوير وما بعده في معظمهم متمركزين على الذّات الغربيّة، ومع نظرة مزدرية للآخرين. ومن أهمّ هؤلاء ألبير كامي وشاتو بريان وأندري جيد وبول كلوديل. لقد كانوا يُمجّدون العرق الهندو-أوروبي في سرديّاتهم، في مقابل ازدرائهم للأعراق غير الأوروبيّة. وكانوا مهووسين بنظريّة النّقاء العرقي وبكونهم العرق الأعلى والأكثر تطورا. وقد أبدى ألبير كامي الكثير من الاحتقار للجزائريين، بوصفهم عربا همَجا، يمثّلون النقيض المطلق للحضارة. وفي رواية الغريب على سبيل المثال، لم يكن لشخصيّات الرواية الجزائريين من أسماء. كانوا عربا وكفى. إنّ تجريد الشخصيّة من اسمها يعني تجريدها من هويّة ذاتيّة ومن تاريخ وذاكرة. ويعني ذلك تسوية البشر بالكائنات الحيوانيّة. فضلا عن كون لفظ "العربي" هي كنية تحقيريّة في المخيال الرمزي للأوروبيين.

كان الفرنسيّون يسعون إلى ضمّ الجزائر إلى المركز الحواضري من خلال فعل الاستعمار، ومن أجل ذلك أنشئت المدن الكولونياليّة على النمط الغربي، ودُفِع بالمهمّشين إلى الأطراف، ليعيشوا في غيتوهات التّمييز العنصري. وفي عالم اليوم، تُبْعَثُ نفس الاستراتيجيّة في المستعمرات القديمة، حيثُ أُنشِئتْ مدن على الطّراز المعماري الغربي بمرافقها السياحيّة ومنشآتها التّكنولوجيّة ومؤسّساتها الثقافيّة، في قلب المستعمرات الغربيّة القديمة، لتكون قاعدة خلفيّة للأوروبيين الوافدين في المواسم السياحيّة للشّرق العربي من أجل الاستمتاع بدفء شمسها وعذوبة نسائمها وطيب ثمارها. في الخليج العربي نجدُ أجمل النّسخ من هذه المدن المنشأة على النمط المعماري الغربي بأموال أصحاب الأرض ولكن بتكنولوجيا غربيّة.

لم يهدأ الصّراع بين المركز والهامش، ولم تُستَبْدَل علاقات القوة في النظام العالمي الرّاهن، رغم ما بلغته الشّعوب من تطوّرٍ رهيب في كلّ مجالات المعرفة الإنسانيّة. لقد بلغ البشر في كلّ القارات أعلى درجات الوعي السياسي والاجتماعي، واختفت الكثير من أساطير العقل الغربي، ومع ذلك لا يزال المتحكّمون في السياسات الوطنيّة والفلاسفة الذين يدعمونهم يعتقدون بنظرية التفاوت العرقي، ويشرفون على التوزيع الاعتباطي لقيم الخيريّة والشريّة. لا يزال الهامشيّون موطنا للتخلّف والرّذيلة والأساطير والخرافات، ولا يزالون عاجزين عن إنتاج المعرفة الإنسانيّة العظيمة، وكلّ ما يفعلونه هو استنساخ مشوّه لمنجزات العقل الغربي. "إنّ وجودهم لذو أثرٍ على الدّوام لكن أسماءهم وهوياتهم لا أثر لها؛ وهم مصدرٌ للربح دون أن يكون لهم وجودٌ تامٌّ. (....). إنهم بشر يعتمد عليهم الاقتصاد والدّولة اللّذان تعزّزهما الامبراطوريّة، لكن واقعهم لم يقتض الاهتمام تاريخيّا وثقافيّا"(إدوارد سعيد، 2004، ص132). ذلك هو واقع العالمثالثيين الّذين تنخرط حكوماتهم في النظام العالمي الذي دبّجه الغرب

خلال عقود من الهيمنة الثقافية والسياسية والاقتصاديّة وتحاول النخب المستنيرة الرافضة للهيمنة الامبرياليّة خلق سرديّة مقاومة ثقافيّة، من خلال الأدب بكلّ أجناسه، وتحاول بعث وعي حضاري أصلاني قادر على اختراق قوة الثقافة الغربية ونقض مقولاتها الفكريّة ذات الطّبيعة العنصريّة. إنّ بعض روائيي ما بعد الحداثة يسعون إلى إنشاء تقاليد جماليّة تحتوي الذّات العربيّة المتشظيّة، وتعيد ترميمها وشحنها بالطّاقة الفكريّة الكافية لتحتلّ المكانة العالميّة التي تستحقها، بالنظر إلى ماضيها المشرق. ومن أهمّ هؤلاء الروائيين يخطر بالبال الروائي عزّ الدّين جلاوجي، وساري محمد وواسيني لعرج وياسمينة خضر، وعبد الرحمان منيف. هؤلاء الروائيون يصنعون مجد السّرديّة العربية المعاصرة، ويشكّلون صورة مشرقة عن ذات حضاريّة تُبْعثُ من تحت رماد الامبرياليّة سيئة السّمعة.

تنحصرُ حروب اليوم في دول الهامش، مع أنها حروب الدّول الكبرى. إنّ الغرب يحاربنا بأموالنا وبرجالنا وفي أرضنا. والذي حصل أثناء عاصفة الصّحراء وما تبعها من حروب على نفس الدّولة، والذي يحصلُ اليوم في بلاد الشّام، هو حرب المركز على الهامش. وهي حربٌ بعيدة كلّ البعد عن المركز. لا توجد أي رصاصة ولا أي صاروخ يطال مدينة غربيّة. وكلّ الضحايا هم من أصحاب الأرض. إنّها عمليات تدمير للذّات، وهي لا تعرفُ التوقف، ولا يوجد ما يؤشّر لنهايتها. بل إنّها تُولّد أسباب اشتعالها كلّ يوم من جديد.

لا يزال الوقت مبكّرا للتنبؤ بنهضة التابع وصحوته من غفوته العميقة ومن مرضه المزمن. إنّ شروط النّهضة متوفرة ولكن الوعي بها لم يحصل بعد. لا تزال الشعوب العربية موزعة بين نموذجين للصحوة. نموذج يعود بها إلى أمجادها الغابرة، ويتوسّلُ نماذجها الثقافيّة العليا، وعمقها التاريخي والحضاري، ونموذجٌ آخر هجينٌ، يتوسّلُ سبل الحداثة الغربيّة، بكل ما تعنيه العبارة من معاني تخرجُ بنا عن الإطار الحضاري للشرق العربي والإسلامي. وبين هذا وذاك ستبقى سبل التّحرر متعذّرة، والطّريق إلى الخلاص والاستقلال عن الغرب مشوبا بالتوتر.

الخاتمة :

لقد تمكّنّا في هذه الدّراسة من تحليل مصطلحي المركز والهامش، منذ ظهورهما في الدّراسات الثقافيّة وفي النقد ما بعد الكولونيالي. وقد تبيّن أنّ الغرب بما امتلكه من قوة عسكريّة واقتصاديّة تمكن من تقسيم العالم إلى منطقتين، إلى غربٍ مهيمن ومستعلٍ، وشرقٍ خاضعٍ، تابعٍ. ويكون الهامش قد ساهم في صناعة تبعيّته وتخلفه، عندما لم يبْدِ أية مقاومة لقمع سلطة الغرب المستعمر، بل أكثر من ذلك فهو قد ساهم في ترويج الثقافة الغربيّة ذات الطّبيعة العنصريّة في منطقته الخالصة، وساعد على نشوء سرديّات العولمة من خلال الميديا والخطاب الروائي والمسرحي. وقد ساعد ذلك على انتشار الثقافة الغربيّة بشكل مدهش خلال القرن العشرين وما بعده. وهذا الانتشار ساعد على نزع المهابة التي كانت تجلّل صورة الشرق القديم، وأصبحنا شهود عيان على شرقٍ متخلّفٍ، تابعٍ، خانعٍ، يرعى ثقافة تضطهده وتثبّته في غيريّته العازلة.

كما حلّلنا علاقات القوة والسيطرة التي تميّز عالمنا الحديث والمعاصر. لازلنا نتبوّأ منزلة التابع ولا يزال الغرب يمارسُ علينا امبرياليّة اقتصاديّة وثقافية وسياسيّة لا يُخطئها الإدراك. إنّ اقتصادنا تابع لتقلبات المركز ومصالحه الحيويّة، كما أنّ قرارنا السياسي يخضع بشكل فضائحي إلى المركز ممثلا في أمريكا، وفرنسا التي ترفض أن ترفع

يديها عن مستعمرات الأمس. والحكومات الوصيّة على مصالح الغرب تعمل على قمع سرديّات المقاومة التي يتزعمها مثقفو الهامش الوطنيّون. ومع ذلك يمكننا أن نتحدّث عن ملامح سرديّة ناشئة، تتبنّى إرساليّة حضاريّة، من أولياتها مقاومة الفرنكوفونية في بلاد المغرب العربي بكل ما تحمله هذه المنظمة الاستعماريّة من قيم الغرب الكولونيالي ومن ثقافة الهزيمة والتبعيّة البغيضة للغرب .

إنّ شروط النّهضة غير مكتملة بسبب ضعف الوعي بجدواها، ومع ذلك على التابعين أن يرفضوا الأمر الواقع ويصنعوا نهضتهم بعيدا عن الوصاية الخارجيّة، ودون توخّي العزلة عن معطيات العصر التي تقتضي نهضة علميّة وتكنولوجيّة لا بديل عنها.

المراجع: .

1-عبد الله إبراهيم، المركزيّة الغربيّة، المركز الثقافي العربي ببيروت/ الدار البيضاء، 1997،

2-إبراهيم بوخالفة، التفكير في الآخر، **Edition itineraires scientifique**، الجزائر، الطبعة الأولى 2021.

3- هنتش تيبري، الشرق المتخيّل، ترجمة د. م عبد الكريم، دار المدى، سوريا، ط الأولى 2006.

4-إدوارد سعيد، الاستشراق، ترجمة كمال أبو ديب، مؤسسة الأبحاث العربيّة، لبنان، ط الأولى 1981.

5- سمير خليل، دليل مصطلحات الدّراسات الثقافيّة والنّقد الثقافي، دار الكتاب العلميّة، بيروت، ع ط وس غير مذكورين .

6-آنيا لومبا، في نظريّة الاستعمار وما بعد الاستعمار الأدبيّة، ترجمة محمد عبد الغني غنوم، دار الحوار، دمشق-سوريا، ط الأولى.

7-نديم نجدي، جدل الاستشراق والعولمة، دار الفارابي، بيروت-لبنان، ط الأولى 2012.

8- بيل أشكروفت وآخرون، دراسات ما بعد الكولونياليّة، ترجمة أحمد الروبى وآخرون، المركز القومي للتّرجمة، ط الأولى 2010.

9- طوني بينيت وآخرون، مفاتيح اصطلاحية جديدة/ معجم مصطلحات الثقافة والمجتمع، ترجمة سعيد الغانمي، المنظمة العربية للترجمة ببيروت، ط الأولى 2010.

10- إدوارد سعيد، الثقافة والامبرياليّة، ترجمة كمال أبو ديب، دار الآداب، بيروت، ط الثالثة.